

يوم الثقافة الوطنية الفلسطينية محمود درويش

إهداء إلى الشاعر والمفكر ناجي علوش، المثقف المؤسِّس والكلمة البندقية

ملحق خاص يصدر عن الإتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين

Monday 18 April 2011 ۲۰۱۱/٤/۱۸ الاثنين



بغداد، ولا في عمان . لا في الرياض، ولا في

حواضر الخليج العربي. لا في اليمن، ولا في

عُمان. لا في القاهرة، ولا في الخرطوم. لا

في طرابلس، ولا تونس، ولا أية في حاضرة

مغربية على الإطلاق!!. وسيدرك أيضاً،

وبالسهولة ذاتها، أن السبب في كل ذلك الحرمان

السلطاني البابوي ليس مَرَدُّهُ إلى ابتعاد قصائدى

بجراحها الفلسطينية البليغة عن هموم الناس في

تلك الأصقاع العربية النائية، وإنما لأن هذه

القصائد تنطلق مبدئياً من أن قارَّتنا العربية

بأكملها، ومن أقصى محيطها إلى أقصى

خليجها، ما هي في واقع الأمر إلا فلسطيننا

الأخرى. الكبرى. الواقعة تحت أعتى صنوف

القهر والمهانة والإذلال، حتى إلى مستوى

الاحتلال!!.. وإنما بين قرع طبول السلامات

الوطنية، وتحت خفق ما يدعونه رايات السيادة

والاستقلال. لأنه ما من شبر واحدٍ من بين

عشرات ألوف الكيلومترات من الحدود البينية

على رقعة هذه القارة المترهلة -(مرحلياً قطعاً)-

إلا وهو مرسومٌ لنا بمساطر الاعداء، وأقلامهم

الحمراء، ضمن حظائر شبه حيوانية، تنوب

عن الأعداء في حراستها، وتكريس وجودها

وديمومتها، هذه السلالة الهجينة حقاً من غالبية

قادتنا السياسيين، والفكريين، والعسكريين. وقد

أقول بعض الثقافيين أيضاً، وعلى قدم المساواة .

أو كما قلت أيضا في شاهدِ شعري أخر. ربما

علينا ، لِكُلِّ رَهطٍ مَقاسُ

هُمْ لِقُصْبِانِ ذُلبِّهِم، حُرَّاسُ

هي هذى الحدود، فصَّلَها الغربُ

قَبْلُنا، لم تَجِدْ مساجينَ وَهُم

نعم، أظن أن من و اجب المبدع بعامة، و الشاعر بصورة خاصة، أن يكون كامل الحضور على الدوام أمام هيئة المتلقين. وإلا، فاي معنى للرسالة في غياب الرسول؟!..

ولكنني على الرغم من هذه القناعة، وفي إطار تجربتي الشعرية المختلفة هذه، ربما كنت من أكثر الشعراء العرب المعاصرين تَغَيُّباً عن جمهور شعرنا العربي، و هو التَغَيُّب الذي كثيراً ما كنت أتوخاه عن سابق قصد وتصميم. بينما كثيراً جداً ما كان يفرضه عليَّ هذا الظرف الخارجي أو ذاك؟!..

فأما من جانب التَغيُّب الذاتي. الإرادي. فلقد كانت، وماز الت، تدفعني إليه شدة الحرص على عدم الوقوع في الابتذال، مسكوناً في أعماق النفس بتلك الحساسية المفرطة بأن كرامة الفنان من كرامة فنه، فما ينبغي له أن يتحول بهذا الفن من مستوى الغاية النبيلة، إلى مستوى الوسيلة الرخيصة من أجل تحقيق بعض المغانم - لا أقول ﴿ الدُّنيَويَّة › ، - بل أقول ﴿ الدُّونِيَّة › الهابطة إلى الحضيض، من شهرة، وثروة، وحظوة عند السلطان!!

بل لقد اتخذت لنفسي ما يشبه المذهب الفكري المستقل تماماً فيما يتعلق بالشان السياسي، عندما ناصبت «مؤسسة السلطان العربي» العداء، ومُرَّ الهجاء، بوصفها المسؤولة عن القسط الأوفر من كل ما لحق بالأمة في زماننا من عذابات وإحباطات، ولَعلِّي، لهذا السبب، انطلقت منذ بداياتي الشعرية الأولى، بأن على الشاعر الحرِّ حقاً أن يدفع هو «غرامة» إبداعه. لا أن يتوقع أية «خِلعة سلطانية» مُجزية في

«رضيتُ جزاءَ عِصياني «ويُعرَفُ مَسن هُدمُ الشسعراءُ «لا مِن خِلعةِ السلطان..

«بل مِن فادح الثمن!!.. فهذا، إذَن، هو أحد أهم الأسباب التي حملتني على العزوف، إلى حد الزهد، عن التموقع ـ ناهيك عن التبرُّج - في دائرة الضوء الإعلامية والثقافية، ما دامت هذه الدائرة نفسها واقعة تحت إمرة ولي الأمر، من طراز «الأخ الأكبر» كما حدثنا عنه جورج أورويل. يُتيحها لمن يشاء، ويمنعها عمَّن يشاء، سواء على مستوانا القومي العربي الفسيح، أو حتى على مستوانا الفلسطيني - الضيّق، الجِهَويّ، من إقليم الشام الكبير - منذ أن حاكت لنا مؤسسة القمة العربية عباءة «منظمة التحرير الفلسطينية» على هيئتها ومثالها، ومَوْبُوءةً من داخلها بكل أمر اضها، فسر عان ما انتقلت عدوى الروح السلطانية «الصبيانية» هذه إلى البعض من كبار «مخاتير» هذه المنظمة، ممن استولوا على كامل الشأن الثقافي، واقتسموه ما بين شر اذمهم الفصائلية حصصاً، ودكاكين متنافرة، متناحرة، تتسع لكل صفة أخرى، غير صفة الثقافة الوطنية الفلسطينية على قاعدة مكينة من انتمائها القومي العربي الأصيل. فلا مُتَّسعَ لي -أو للكثيرين من أمثالي – في مثل دائرة الضوء المر ذولة هذه، إلا بخيانة أصغرَيَّ هذين. قلبي ولساني. متحوِّلاً بذلك إلى أحد المستحيلين المرذولين. إما إلى مُستحاثّة ثقافية ثيوقر اطية تسعى لإقامة ((دولة الخلافة الإسلامية)) في نطاق علبة السردين البَشَريِّ في قطعة غـزة مثلاً ولا أقول قطاعها-.. أو إلى مسخ راكاحيِّ مُبَندق شيوعياً -(ما بين الفلسطيني والإسرائيلي)- وأتسلل هكذا كاللصِّ، بادِّعاءِ عاطفة الحب من داخل غريزة الجنس، إلى هدف التطبيع الذميم ما بين القتيل الفلسطيني وقاتله اليهودي. فهذان التّحوُّ لان المريضان، في اعتقادي، يقعان في مرتبة الكفر الذميم، ليس بجو هر القضية الفلسطينية وحسب، ولا بالثقافة

وأما من جانب «التّغييب» اللزّار ادي بالمقابل، و هـو الذي أقصاني - على الرغم مني - بعيداً جداً عن الغالبية العظمى من الهيئة العربية القارئة، فلا شك أن من سيقرأ هذه الحصيلة الشعرية التي بين يديه الآن، على خلفية ستة عقود سالفة من واقعنا العربي الذي ما يزال حاضراً في الأذهان، سيكتشف جيداً، ودون كبير عناء. لماذا لم ير طيلة عمره ديوان شعر واحداً يحمل اسم هذا الشاعر (يوسف

الوطنية الفلسطينية كإحدى أهم تجلِّياتها، وإنما

أيضاً بقيمة الإنسان، كإنسان!!..

أية مكتبة في أيما عاصمة عربية أخرى على الإطلاق!!.. إضافةً إلى أن كل ما قد تَضمَّنتهُ هذه الدواوين -في حينها- من أعمالي الشعرية، لم يكن يتعدى قمة جبل الجليد الظاهرة على السطح، بينما لم أتراجع يوماً عن استئناف مسيرتى الشعرية هذه، قانعاً بحكم الضرورة وإن لم أكن مُقتنعاً- بمجرد استيداع ما قد يتوفر لي من غلالها بين الحين والأخر، إمَّا في أعماق الدروج، أو ضمن الرفوف البعيدة العالية، وَواعياً أتمَّ الوعي لحقيقة السبب الذي يحملني على احتباسها القسري هذا. ومؤمناً في الوقت نفسه أشد الإيمان بأنني إن لم أكن قادراً، اليومَ، على الوفاء بديني الشعري هذا تجاه دائنيَّ من جمهرة المُتلقِّين، فسيأتي غدُّ لا ريب فيه، يلاحقني فيه هؤلاء الدائنون أنفسهم بسبيل إبراء ذمتى نحوهم. وغداً، أو بعد غد على الأكثر،

هذه الأرض لمن يرثّها عن جدارة واستحقاق من

مواطنيها الصالحين. أو كما قاربت يوماً مثل

هذا المعنى في إحدى ‹‹التقاسيم على الخفيف››..

بين واقعتين!!

لقد وقع لي، عملياً، من بعد كارثة حزيران

«لا سلم، إن اللاجئين اليوم أعداء السلام!!.. «حتى تفيض عدالة التاريخ من حد الحسام!!.. ولكن، وبما أن قرار التقسيم الإجرامي الأنف الذكر، سرعان ما اكتسب صفة القانون الدولي، بمعيار الحضارة الغربية الآيلة حتماً إلى السقوط المريع..

فها أنذا الآن، ربما في السنة السادسة أو الفروعية المتبدّلة والمتساقطة بطبيعتها.

ذلك، إلى أن اجتمعتْ لي فجأة، وفي آنِ معاً، واقعتان اثنتان على درجة من التناقض والغرابة

في الواقعة الأولى: هنالك امرأة فلسطينية -(تعرفني وأعرفها جيداً.. وتتعاطى كتابة الشعر، وتدريسه، وترجمته إلى اللغة الإنكليزية)- قامت مؤخراً بمسح أنطولوجي شامل لشعرنا الفلسطيني في مجلد منتفخي ولشعرنا العربي المعاصر بعمومه في مجلد ثان لا يقل عنه انتفاخاً. وذلك لفائدة جامعة كولومبيا الأميركية في نيويورك. فدفعني الفضول فوراً إلى معرفة القصيدة التي لا بد أن تكون قد اختارتها من بين أعمالي الشعرية. فإذا بي أمر بأسماء ثلاثة وستين شاعراً فلسطينياً معاصراً (فلنقل من ابر اهیم طوقان، حتی یوسف أبو لوز، على سبيل المثال)- ولكن السيدة المختارة

فقلت لنفسي، لا بد أن المرأة قد جردتني من هُوِيَّتِي الإقليمية الفلسطينية، باعتبار ها إِيايَّ شاعراً قومياً عربياً بالدرجة الأولى!!.. فَرُحتُ إلى مجلدهاالثاني الشامل لشعرنا العربي المعاصر بِقَضِّهِ وقضيضه، فكذلك الحال لم أجد لى موقعاً فيه ضمن خمسة وتسعين إسماً، يتراوحون في ألوانهم الفنية المتباعدة ما بين كلاسيكية بدوي الجبل، حتى نثرية سرجون

أن يتنفس حرية العرض والتوزيع من خلال

سيمضى «قوميسار)» أمن الشعر والفكر، إلى غير رجعة عن حياتنا الثقافية المعاصرة. وتظل

هذه الأرضُ لي ، وَحَسْبُكَ منها جَـوْف مِترين ، يا رئيسَ الوزارَهُ فإذا ما استَحَلْتَ بعضَ رُفاتِ ظل شيعري، لِأَلْفِ جيل، مَنارَهُ

العظمى عام ١٩٦٧، ان سيقت جميع قصائدي السابقة لذلك التاريخ الأسود - ومن ثُمَّ اللاحقة له- إلى قفص اتهام تفتيشيِّ إسبانيِّ جهنميّ، بدعوى أنها المسؤولة - (ضمن غيرها من إبداعات كثيرين آخرين)- عن التسبب في وقوع تلك الكارثة الفاجعة، من حيث رَفَضَتْ قريحتى البَريّة المُشاكِسة مبدأ الامتثال المهذب الأعمى لقرار هيئة الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٧ بتأسيس دولة لحثالات أوروبا اليهودية فوق أرض فلسطين، والأنها نبذت أيضاً كل مفهوم خانع للسلام على أساس ذلك القرار الشيطاني الرجيم، صارخةً في برّيَّة الخيبة السياسية العربية (حتى منذ عام ١٩٥٤)-ضد «أكذوبة السلام» التي ما تزال رائجة إلى يوم

السابعة من بعد الألفين في دمشق، ولم يعد لى أي حضور أدبي أو معنوي يستحق الذكر على سطح القشرة الظاهرة من حياتنا الثقافية المعاصرة. ولكنني على الرغم من كل ذلك التغيُّب، أو التغييب، لم أتراجع يوماً عن محاولة الصعود بخطِّ بياني الشعري، أعلى فأعلى، ليس كملاذٍ نفسي من واقع ما أعانيه من حصار خارجي خانق، وإنما كاستجابة إنسانية معافاة لتحديات ذلك الحصار الذي أعلم جيداً أنه ليس قاصراً عليَّ بمفردي، وإنما يشتمل في الوقت نفسه، وبالقدر ذاته، على جميع ﴿﴿أرِثُوذَكُسِ﴾ القضية الفلسطينية المتشبثين بجذورها العميقة، كأصل وأساس لمجمل القضية العربية بأكمل ابعادها، ولم «يتكثلكوا» يوماً في متاهاتها

لم تجد لي موقعاً بينهم !!..

باقيــة .. وأثــراً لا يمحي .. درويش الذي اســتطاع انتزاع ما هو حقّه وواجب غيره تجاه المثقف الفلسطيني . وبذلك كان لدرويش حيّزه الذي يستحق، ليواصل تمارينه الإبداعية بمهارة واقتدار . متخفَّفاً من أعباء اليومي والعادي، متفرَّ غاً للكتابة وللفعل الشعري بما يليق بشاعر كبير وهو أمرٌ لا بدّ منه، أسوة بباقي المبدعين في العالم الـذي يمنحون الفضاء الكافي لتقديم عطاياهم المعر فية، تأكيداً على المقولة الثقافية، واحتراماً للمبدعين وانحيازاً لدورهم وفاعليتهم في إظهار الخير العام، وتعميم لقيم الحقّ والحرية والجمال ..

أمًا وقد استحقّ درويش ما استحقّ ، و هذا حقّه بالتمام والكمال .. فإننا ولمناسبة يومه العالى نفتح جرح الثقافة على اتساعه، ونسمّي الأشياء بمسميّاتها .. في محاولة للنظر للوراء بغضب فيما يتعلِّق بالسياق الثقافي في فلسطين .. وحالة التراجع والنكوص التي تمرّ بها الثقافة في بلادنا .. وماذا عن علاقة المثقف بالسياسي ؟ وإقعاء بعض المثقفين الكذبة على أعتاب رأسمال السياسي؟ واستخدام البعض أمام أخضر الدعم المشروط والمدان الذي نخّل المقولة الوطنية واستدخل الهزيمة لحجرة نومها المقدّس. أمًا البعض الآخر من المثقفين الذي يواصلون حمل راية الثقافة المنازلة والجسورة التي ترفض الإغراءات والانكسارات .. وتندفع في تأصيل ثقافة البلاد تأسيساً على مقولة الأسلاف الباقية وتطويراً لها بما يمنحها القدرة على المواجهة والصمود على الرغم من أنياب الاستهداف وآليات التزييف الباهت، و هنا مربط الفرس ، فإننا نؤكُّد على انتباهتهم بما يجعل الأجيال أكثر عافية وعنفواناً.

منذ أوسلو وما تبعه من تنكيس للرايات والمعنويات كذلك، ومنذ هبط مَنْ هبط عن ظهر أحد النزال والثقافة . منذ ذلك الوقت وقبله بقليل، ترك المثقف الفلسطيني للغربة والاغتراب . للجوع والحزن ، واستطاع بعض الساسة في منظمة التحرير والسلطة أن يحاولوا اقتصار المشهد الثقافي على الشاعر درويش، فاختطفوه حيًّا، واختطفوه بعد رحيله فيما يسمى بمؤسسة محمود درويش الذي أقصىي عنها المثقفون في الداخل والخارج، ليعلن هؤلاء برحيل درويش انطفاء مقولة الثقافة الفلسطينية،

وأن ما هو قائم لا يستحق الالتفات!! ولنتوقّف هنا .. ماذا عن المثقفين في المنافي والمغتربات وأين دائرة الثقافة في منظمة

التحرير ؟؟ الجواب: لا دائرة ثقافة و لا اهتمام وحديثاً تم تأسيس دائرة الثقافة و الإعلام . ليواجــه كلّ مثقّـف مصيره .. لأنه يقف بمفرده .. ماذا عن فلسـطين المحتلة العام ١٩٤٨ ومثقفيها؟! ببساطة .. تركوا المؤسسة الاحتلالية ولوزارة المعارف الاحتلالية كي تهوي بفأسها الصدئة على رأس الثقافة في بلادنا المحتلة العام ١٩٤٨. تغريباً واستهدافاً وإلغاء وتزويراً .. ونحن في مسرح الفرجة !! أمّا في الضفة والقطاع والقدس فقد منحت الثقافة ما يقيم الأود . سياق تجميلي ليس إلا . وهنا لا بدّ من القول: إن بعض الساسة الذين تحكَّموا في مال الثقافة منذ أوسلو وحتَّى اللحظة أوصلوا الثقافة إلى ما وصلت إليه، ليس لأن ثقافة بلادنا عاجزة، بل لأنهم يريدون ذلك ولأنهم عاجزون عن رؤية العالي والحقيقي والأصيل!! والمثقف حسب رأيهم هو من يدور في فلكهم .. ويدوّر مقولتهم النافقة، متناسين استراتيجية المثقف، وأز المثقف في بلادنا هو الذي مكّن شعبنا العظيم من الصمود بالأغنية والرواية والقصّة والشعر والتشكيل والتراث المضيء . ولولا ذلك لما بقي للسياسي الفلسطيني معنى ودور كذلك !! حيث لا مكان للمثقف النقدي والخروج لدى هؤلاء ومؤسساتهم التي تمنح الكثير في تعميم النافق والسطحي والتسطيحي.

و هنا لا بدّ من الإشارة إلى جمهرة الأسماء الباقية والتي أعطت ثقافتنا الوطنية المعنى والجدوى وساهمت في المشهد الثقافي العربي بغني وافر وكذلك المشهد الثقافي الكوني..

لماذا حورب الشاعر الكبير يوسف الخطيب لما يزيد على ستين عاماً من الفاعلية الثقافية والشعرية ونصّه بعيد عن ترابه وبلاده، حصاراً وتناسياً ؟! ولماذا أنكر الشاعر الكبير خالد أبو خالد، وأين نصوص حسن البحيري ومعين بسيسو وراشد حسين وبر هان الدين العبوشي وكمال ناصر وأبو سلمي وعلى فودة وماجد أبو شرار وناجى العلى وغسان كنفاني وناجى علوش وهارون هاشم رشيد ومحمد حسيب القاضمي الذي رحل ولم ير أعماله التي كانت تطبع عن بيت الشعر، وعولج على نفقة الأسرة، وقد مرّ عام ونصف ولم تنجز معاملته في التقاعد، القاضي الذي كتب الكثير من أغاني العاصفة والثورة الفلسطينية!! وأين الشاعر الكبير سميح القاسم من اهتمام المؤسسة الرسمية، وأين الملحّن الكبير مهدي سردانة ومن يسأل عنه في القاهرة، وكذلك غالب شعث، وماذا عن أحمد دحبور ومريد البرغوثي وعزّ الدين المناصرة ومحمد لافي ويوسف عبد العزيز وزهير أبو شايب وطاهر رياض وعمر شبانة ويوسف أبو لوز وحنًا أبو حنا وأحمد حسين وماذا عن الشاعر الكبير علي الخليلي والناقد الكبير صبحي الشحروري وغريب عسقلاني وعبدالله تايه وزكي العيلة وطه محمد علي، ومحمد علي طه ود. أفنان القاسم ورشاد أبو شاور وزكريا محمد وعادل الأسطة وعبد الناصر صالح ومحمد الريشة أما عن حسين البرغوثي الذي طالبنا وهو على فراش المرض من سدنة الثقافة حينها منحه جائزة فلسطين التي فصّلت على المقاس، فمنحت للبعض وتوقفت حتى اللحظة .. فما زال حسين البرغوثي ينتظر من يلتفت له بالتكريم الذي يستحق. والقائمة تطول.

لماذا حاول متعهدو المال في منظمة التحرير والسلطة أن يقفزوا عن كل هذه الأسماء!! ببساطة لأن ما هو مطلوب: ثقافة على مقاس المانح والداعم، ثقافة تشيع التطبيع والارتماء في أحضان النقيض ومقو لاته، ثقافة الرضىي والقبول، ثقافة الاستجداء والاستخذاء، ثقافة التمويل الأجنبي الذي استباحنا حتى العظم، مؤسسات وأفر اداً، ما يزيد على ألفين وسبعماية (NGO's) في بلادنا أيها السادة.. والحبل على الجرار ..

لأن بعض المثقفين بعد أوسلو حاولوا تقديم المشهد الثقافي عبر هم وعبر إبداعاتهم المتواضعة، يريدون للرواية الفلسطينية أن تكتب من خلالهم . فكان لا بدّ من إســدال الستار على الأســماء العالية التي ذكرناها آنفاً وغيرها والتي تشكّل خارطة الكتابة والإبداع الفلسطيني في الوطن والشتات .. حتى يبدو للجيل الجديد أن الثقافة الفلسطينية تقتصر على هؤلاء الأدعياء والزاحفين، الكتبة الكذبة. الذين تخلوا عن دور هم ومسؤوليتهم لقاء ترجمة هنا واستضافة هناك !!

إن هذا اليوم يجعلنا نلتفت للأسماء الكبيرة الوازنة التي تركها بعض الساســــة، فهي المعمار الثقافي الأعلى والأبقى وسندافع عنها ونعمّم فعلها، تأصيلاً للحقّ والحقيقة والفعل الثقافي الناجز والمقولة المنازلة، وبهذه المناسبة يعكف الاتحاد العام للكتّاب والأدباء الفلسطينيين على إطلاق الأعمال الشعرية الناجزة للشاعر الكبير يوسف الخطيب في ثلاثة مجلدات والأعمال الشعرية للشاعر والمفكّر ناجي علوش والأعمال الشعرية للشاعر الكبير محمد لافي والأعمال الشعرية للشاعر الكبير على الخليلي. لتوضع كل هذه الأفعال الشعرية على أعين المنكرين والمتناسين والمنكسرين .. لنقول لهم ما دام هؤلاء وغير هم بخير فنحن بخير . والأبقى هو الجدير . الذي يمنح البلاد طاقة الخير والعطاء ولا ينتظر العطاء .. لأنّ ثمّة من خلق ليعطي وثمّة من خلق ليزحف ويقبّل الأعتاب .. وهؤلاء عبء على الثقافة والبلاد!!

إنّ الوفاء للأسماء الباقية والحقيقية هي استكمال الوفاء لدر ويش ومقولته التي تدفعنا

نحو تعميم الجميل والذي يبقى .. * الأمين العام للاتحاد العام للكتّاب والأدباء الفلسطينيين

عن الشاعر.. غائباً وحاضراً إنهم يغتالون الثقافة ..!! الشاعر الكبير يوسف الخطيب فعند ذلك لم أعد بأدنى حاجة، لأي برهان إضافي، على أن ﴿سَدَنَة المحفل الثقافي مراد السوداني* الصهيوني عندهم»، قد بلغوا بِحُكمِهم عليَّ في اليوم الوطني للثقافة الفلسطينية، مساحة لاستدعاء الجماليات التي اشتقّها شاعرُ بالإعدام، إلى درجة الإبرام.. ولكنني شعرت استثنائي .. وقامة عالية عارمة .. بحجم محمود درويش .. درويش الذي استطاع أن في الوقت نفسه بأن حكمهم هذا لن يستحق يضيف لفلسطين طاقة فعلِ إبداعي وأن يخطِّ في كتاب الحكاية الفلسطينية سطور أ في آخر الأمر ما هو أكثر من أن يداس تحت

وأما في الواقعة الثانية: وعلى النقيض من

الأولى بمئة وثمانين درجة، فأمامنا الآن رجل فلسطيني هذه المرة، ربما يصغرني (عُمْراً، لا قَدْراً) - بقرابة أربعين سنة، وهو يعرف عنى أشياء ولا أعرف عنه أي شيء، ويقيم في مَصِيفنا الفلسطيني الأجمل «رام الله»، بينما أقيم بعيداً عنه دمشق. وهاهي اتصالاته الهاتفية معي تتلاحق كزخِّ المطِر، ومَطْلَبهُ الرئيسي فيها هو أن أكون على أهبة الاستعداد للحضور بكامل غَلَّتي الشعرية، والفكرية، أمام الجمهور، على أن يقوم هو وأترابٌ له يحرسون تراب فلسطين، بإصدار جملة هذه الأعمال على مسؤوليتهم الخاصة، وفي حلة طباعية معقولة. واسم هذا الرجل.

مراد السوداني. من دير سودان أصلاً. من أعمال رام الله..

ثم ها هو مراد السوداني في زيارة لاحقة لدمشق، وربما كان معه الشاعر الطيب يوسف المحمود، وآخرون طيبون من رَحِم فلسطين الطُّهُـور، ولكـن أحداً منا لـم يتمكن من رؤية الآخر، فترك لى رسالة خطيّة، عفوية، استأذنته في اقتطاف بعض سطور ها لسيدي القارئ، فأذِنَ لي بذلك . ويقول فيها:

«رسالة مفتوحة إلى الوالد الشاعر «يوسف الخطيب. سيف فلسطين الأتمّ. «الوالد الشاعر الكبير يوسف الخطيب، حفظه الله ورعاه..

«تحية فلسطين المحمولة على الدم المجيد، والعناد المقدس،

﴿ودعائي ورفاقي في فلسطين أن يَمُنَّ الله عليكم

بموفور «الصحة ولذة العافية. «دائماً أقول، زيارتي لدمشق الأمويين ناقصة، إذا لم أطف «بكعبة شعرها العالي. يوسف الخطيب. وألتقيه، فتقرَّ عَينٌ، «ويطمئِنَّ قلب. و هذا محض الوفاء الخالص الذي أحمله «وجيلي، تجاه أحد أقطاب الشعرية الفلسطينية والعربية. «هذه المرة، وفي الطريق إلى دمشق، خالجني شعور أنك مريض. «فحزنت والله لمجرد الشعور .. بل أتعبني شعوري .. لأنك منا «بمنزلة القلب للجسد، والسور للقدس. وننحاز إليك أيها «الكبير انحياز السماء لأيدي الشهداء، وانحياز فلسطين «للجديرين بها، وأمتنا لسدنتها وحراس خلمها الشفيف.

> وهكذا. إلى آخر الرسالة. ويَبْقى لنا الحب!!..

ويقينا أننى لم أقتطف للسادة القراء قطعة الحب هذه التي افتلذها مراد السوداني من أعماق قلبه، بسبيل أن أبر هن كَرَّة أخرى على أن الشاعر، الملتزم، الحق، لا يدركه الموت إلا في ضمائر ميتة من أساسها. أو لأجل أن افاضل، من قريب أو بعيد، ما بين حضور الشاعر القهري، القسري، في أذهان الآخرين، بقوة الدعاية وفَجاجَةِ الإعلام.. وبين حضوره، العفوى، كَمَشاع الضوء، وَرَسْلِ النسيم. وإنما لكي أخلص من كل ذلك إلى مثل ما خلص إليه خطيب البعث القومي الألماني ﴿فيخته››، في أَثَرهِ الفكريِّ الخالد «أربعةً عَشَـرَ خطاباً للأمة» أثناء ما كانت أرضُ بلاده، والملايينُ من أبناء شعبه، يرزحون تحت وطأة الجزمة العسكرية الفرنسية الغازية بقيادة نابليون، فانتهى إلى تتويج كامل مسيرته الفكرية، الثورية، بتقريره للحقيقة البسيطة التالية:

«لقد فقدنا كل شيء. ولكن تبقى لنا التربية»!!.. ولعلي هنا أترسم خُطَى هذا البعثي الألماني الغيور، او حتى أتقمص روحه أيضاً، عندما أخاطب إنساننا العربي بعامةٍ، ونُزلَاءَ قلبي الفلسطينيين بوجهٍ خاص:

«لقد فقدنا كل شيء. ولكن يبقى لنا الحب»!!.. هذا الحب الذي لا يمثله طليعي فلسطيني بمفرده في كلمات رسالته الطيبة الأنفة الذكر، وإنما الذي يتفجر في قلبنا الفلسطيني الواحد الكبير، حَدْباً وحناناً على جميع جراحنا الفاهقة الدافقة على امتداد قرن بطوله من الزمان، والذي يضع الوفاء للوطن، والولاء لأمجاد الشهداء، عند أقرب منزلة من ذات الله.

هذا الحب للأرض، والناس، والحق، والخير، والجمال، الذي لا أظن أنه يمكن أن يتحقق إلا بما يعادله، أو حتى يزيد عنه، من مشاعر الكراهية المرة السوداء لأعداء هذه الأقانيم المقدسة سواءً بسواء!!..

مقتطفات من مقدمة الشاعر الكبير يوسف الخطيب لأعماله الشعرية التي ستصدر قريبا عن الاتحاد العام للكتاب والأدباء.

من بين ألف شاهد مماثل.. «غُفرانَكَ اللهُ قد أَخرجتَ أُمَّتَنا للناس «خَيرَ بَنى الإنسان، دَرْبَ هُدىً.. فَلِمْ رَسَمْتَ «على أقدارنا زُمَراً من شَرِّ خَلقك، لا إلا «رَعَوْا بيننا يوماً.. ولا ذِمَما ؟!.. فإن مثل هذه اللغة الشعرية، وَلِقُر ابةِ نصف قرن

بطوله من ماضييَّ الشعري، لم تكن عابرة، لا للحدود السياسية السلطانية، ولا حتى للجُدُر والأسوار الثقافية المنيعة التي أخذ يتمترس في أبراجها مؤخراً - (أو من بعد كارثة حزيران العظمي على وجه التحديد)- كل هذا الحشد الهائل من عَسَس الثقافة، وأدعيائها، والمعتاشين منها، ممن يستريحون للسلطان بقدر ما يستريح السلطان لهم، عندما ينصر فون نهائياً عن جميع مفردات الشأن القومي والوطني وحتى الإنساني العام، إلى اجترار ما قد تساقط في أفواههم من فتات مائدة الثقافة الغربية بعمومها من شعر وفكر، ومناهج نقد، وتجارب إبداع، لعل من آخر ها وأخطر ها معاً اعتماد ﴿﴿شُعُورِ اللَّغَةِ﴾ بعلامته الأميركية الفارقة هذه ->>Language Poetry »- بديلاً عن «لغة الشعر »، مما وضع اللغة -ولا شيء آخر غير اللغة- بمنزلة الغاية النهائية والكلّية لجنس الفن الشعري!!.. ولهذا السبب، وللأمانة مع قارئي العربي العزيز

- (حيث ما يزال باستطاعته أن يستعيد نقوده من بائع هذا المصنَّف الشعري على الطريقة الأميركية الترويجية ذاتها "Your money Back'' إذا لم تَرُق له السلعة المشتراة)- فإنني أَصْدُقُـهُ القول بأنه لن يجد في لغتي الشعرية هذه ما يضع «القيمة الشعرية العليا» في خدمة «اللعبة اللغوية» او ما أدعوه أيضاً بالبهلو انية اللغوية باسم الحداثة- باعتبار ها الأكثر تسلية، ورواجاً، واجتذاباً لبعض المُتلقين. بل على العكس تماماً سيلاحظ القارئ في هذه القصائد دأب فلاح فاسطيني كادح ومكافح في فِلاحةٍ حقله اللغوي العربي الأخصب وألأرحب ما بين جميع لغات الكون، محاولاً هكذا أن يرتفع باللغة كوسيلة، إلى مستوى القيمة الشعرية كغاية نهائية عليا . خاصة أن هذه القيمة المتوخاة تتعلق الآن بأفدح ما قد مَرَّ بذاكرة الإنسان من مآس فاجعة على مَرِّ جميع الأزمان. في

أرض كنعان!!.. بكلمات أخرى قليلة. لقد صدر لي عبر هذا الزمن المديد كله ما لا يزيد عن ستة دواوين شعرية، فيما يَقررُبُ في مُعدَّله الوسطيِّ من ثلاثة آلاف نسخة للعنو ان الواحد وبرغم ذلك . وباستثناء الرئتين السورية في دمشق. واللبنانية في بيروت. لم يُقدّر الأيِّ من هذه الدواوين